مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(كولوسي ٣: ٤-١١)

يا إخوةُ متى ظهر المسيحُ الذي هو حياتُنا فأنتم أيضاً تظهرون حينئذٍ معه في المجد* فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض الزنى والنجاسةَ والهوى والشهوةَ الرديئة والطمعَ الذي هو عبادةُ وثَن* لأنَّه لأجل هذه يأتي غضبُ الله على أبناءِ العِصيان* وفي هذه أنتم أيضاً سلكتُم حيناً إذ كنتم عائشينَ فيها* أمَّا الآنَ فأنتم أيضاً اطرَحوا الكُلَّ الغضبَ والسُخْطَ والخُبثَ والتجديفَ والكلامَ القبيحَ من أفواهِكم* ولا يكذِبْ بعضُكم بعضاً بل اخلَعوا الإنسانَ العتيقَ مع أعمالِه* والبَسوا الإنسانَ الجديدَ الذي يتجدَّدُ للمعرفةِ على صورةِ خالقهِ* حيث ليس يونانيٌّ ولا يهوديٌّ لا خِتانٌ ولا قَلَفٌ لا بربريٌّ ولا إسكيثيٌّ لا عبدٌ ولا حرٌ بلِ المسيحُ هو كلُّ شيءٍ وفي الجميع.

العدد ٢٠٠٧/٥٠

الأحد ١٦ كانون الأول

أحد الأجداد

تذكار القديس حجي النبي

والقديسة ثاوفانيس الملكة العجائبية

رسالة القديس أغناطيوس الإنطاكي إلى أهل إزمير

في العشرين من هذا الشهر تعيّد كنيستنا المقدسة للقديس اغناطيوس المتوشح بالله ثاني أسقف على انطاكية، الذي اقتيد إلى رومية بسبب إيمانه بالرب، حيث استشهد بعد أن طُرح مأكلاً للأسود سنة ١٠٧. وفي طريقه للإستشهاد مرّ بعدة مدن حيث لاقاه الكثير من المؤمنين محاولين تعزيته، وقد كتب عدّة رسائل من تلك الأماكن التي سلكها في طريقه إلى رومية، موجهاً إياها إلى كنائس عدّة.

لكتابات الآباء دور كبير في حياتنا الكنسيَّة لما تحويه من تعليم يعيننا في حياتنا في المسيح من جهة، ولما تحويه من إشارات تلقي الضوء على الوضع الكنسي في الفترة الزمنية التي كُتبت فيها، من جهة أخرى. أضف إلى أننا نتعلَّم منها كيف عالج آباء الكنيسة الأوضاع والمشاكل التي واجهتها الكنيسة وكيف استطاعوا أن ينقلوا التعليم الصحيح الذي يقودنا إلى الخلاص بالإيمان بالرب يسوع، ويحذروا من الوقوع في الضلال الذي يؤدِّي إلى هلاك المؤمن.

لقد كان القديس اغناطيوس مثالاً بارزاً لدور الآباء في حياتنا. فقد عاش في القرن الثاني للمسيح، أي عاش في الفترة التي تلت مباشرة عصر الرسل، ونقل إلينا تعليمهم من خلال رسائله التي كتبها وهو في طريقه إلى الإستشهاد. وقد كان له دور بارز أيضاً في تنظيم الحياة الكنسيَّة وإلقاء الضوء على الترتيب الكهنوتي فيها ودور الأسقف في قيادتها.

ومثالاً على ذلك سننتقي رسالته إلى أهل ازمير لأنها تحوي في طيّاتها تلك العناصر التي ذكرناها سابقاً.

يبدأ القديس اغناطيوس رسالته هذه بالتوجه إلى كنيسة ازمير على أنها كنيسة الله الآب وابنه المحبوب جداً يسوع المسيح المملوءة بالإيمان والمحبة، ويعود في صلب رسالته إلى الإشارة إلى ارتباط الإيمان بالمحبة اللذين لا يفصلهما شيء. فعند القديس اغناطيوس الإيمان الصحيح ينشئ محبة لا أنانية. ومن له فكر يخالف الإيمان الصحيح القائم على نعمة يسوع المسيح التي حلَّت علينا يضاد

الإنجيل

(لوقا ١٤: ١٦-٢٤)

قال الربُّ هذا المَثَل. إنسانٌ صنع عشاءً عظيماً ودعا كثيرين* فأرسل عبدَهُ في ساعة العشاءِ يقول للمدعوّين تعالوا فإنَّ كلَّ شيءٍ قد أُعِدَّ* فطفِق كلُّهم واحدٌ فواحدٌ يَستَعفون. فقال له الأولُ قد اشتريتُ حقلاً ولا بدَّ لي أن أخرجَ وأنظرَهُ فأسألك أن تُعفِيَني* وقال الآخرُ قد اشتريتُ خمسةَ فدادين بقر وأنا ماضٍ لأُجرِّبَها فأسألك أن تُعفِيَني* وقال الآخرُ قد تزوَّجتُ امرأةً فلذلك لا أستطيعُ أن أجيءَ* فأتى العبدُ وأخبر سيِّدَهُ بذلك* فحينئذٍ غضِبَ ربُّ البيتِ وقال لعبدِه اخرُجْ سريعاً إلى شوارعِ المدينةِ وأزقَّتِها وأدخِل المساكينَ والجُدُعَ والعميانَ والعُرْجَ إلى ههنا* فقال العبدُ يا سيِّدُ قد قُضِيَ ما أمرتَ به ويبقى أيضاً محلٌّ* فقال السيِّدُ للعبد اخرُج إلى الطُّرقِ والأسيجة واضطَرِرْهم إلى الدخولِ حتى يمتلئَ بيتي* فإنّي أقول لكم إنَّه لا يذوقُ عشائي أحدٌ من أولئكَ الرجال المدعوين. لأن المدعوين كثيرون والمختارين قليلون.

فكر الله، «مثل هذا لا يهتم لا بالمحبة ولا بالأرملة، لا بالفقير ولا بالمضطهدين، لا بالأسرى ولا بالمعتقين، لا بالجائع ولا بالعطشان».

هذا الإيمان قائم على الاعتراف بأن المسيح يسوع «هو حقيقة من نسل داود بالجسد، ووُلد حقيقة من العذراء واعتمد من يوحنا لتتم به كل عدالة، وسُمّر من أجلنا على عهد بيلاطس البنطي وهيرودس رئيس الربع، وبثمرة صليبه وآلامه المقدسة وَجَدْنا الحياة، وبقيامته رفع رايته فوق العصور ليجمع قديسيه ومؤمنيه من اليهودية ومن الأمم في جسد واحد أي في كنيسته». كما أن المسيح تألم حقاً وقام حقاً من أجل خلاصنا وذلك ليس في الظاهر. هذا الاعتراف الذي هو بمثابة دستور إيمان يرتبط بشكل وثيق بالمحبة، وكأننا بالقديس اغناطيوس يعلن بأن لا إيمان بدون محبَّة، فلا بد للمؤمن أن يثبّت إيمانه بعمل المحبة. وكل مَن لا يعترف بكل ما تقدّم معتبراً ان تألم المسيح وقيامته كانا في الظاهر، يشبه الشياطين. لذلك يدعو المؤمنين الحقيقيين أن يحذروا مثل هؤلاء حذرهم من الوحوش التي يجب ليس فقط أن لا يقبلوها بل أن لا يلتقوا بها إن أمكن. مثل هؤلاء يتحاشون الاشتراك في سر الشكر حتى لا يقرّوا «بأن سر الشكر هو جسد مخلّصنا يسوع المسيح، الجسد الذي تألّم من أجل خطايانا والذي أقامه الله الآب بصلاحه». «أولئك الذين يرفضون عطية الله يموتون في مجادلاتهم. الأفضل لهم أن يطبّقوا ناموس المحبَّة ليكون لهم مجال في القيامة».

وكما كانت آلام ربنا يسوع المسيح وموته حقيقيةً ولم تكن في الظاهر، هكذا فإن الذي يتألم ويموت بسبب إيمانه بالرب يسوع، يتألم ويموت حقيقة على مثال الرب يسوع وبهذا يكون مع الله: «القريب من السيف قريب من الله. أن تكون وسط الوحوش يعني أنك مع الله، شرط أن يكون كل ذلك باسم يسوع المسيح. إني أحتمل كل شيء لكي أتألم معه، هو الذي يهبني القوة وهو الذي صار إنساناً كاملاً».

ثبات المؤمن في إيمانه المستقيم والسلوك في المحبة في الكنيسة يرتبط أيضاً عند القديس اغناطيوس باتّباعه للسلطة الكنسيَّة المتمثلة بالأسقف والكهنة والشمامسة، وهذه التبعية ليست تبعية بشريَّة كاتباع الزعيم مثلاً، إنما تعبِّر عن السلوك في وصايا الرب، فعلى الجميع أن يتبعوا الأسقف كاتباع يسوع للآب، وأن يتبعوا المتقدمين أي الكهنة كاتباعهم للرسل، وعليهم أن يحترموا الشمامسة كاحترامهم لوصايا الله.

فالعلاقة التي تربط المؤمن بأسقفه هي علاقة محبة أبوية من جهة الأسقف وبنوية من جهة المؤمن. والأسقف هو صورة المسيح في الجماعة، فكما أنه حيث يكون المسيح هناك تكون الكنيسة الجامعة هكذا فإنه حيث يكون الأسقف هناك يجب أن تكون الرعية.

الرعية هي التي تشكِّل جسد الرب وتتحد به في سر الشكر الذي يقيمه الأسقف أو من يوكله هو. إن ارتباط الأسقف برعيته هو إذاً ارتباط إلهي، من هنا يدعو القديس اغناطيوس المؤمنين أن لا يفعلوا شيئاً يتعلَّق بالكنيسة بدون إرادة الأسقف: «جميل أن نعرف الله والأسقف. من كرّم الأسقف كرّمه الله. من فعل شيئاً خفية عن الأسقف خدم الشيطان».

ختاماً، لا بد من التشديد على أن

تأمل

«ولا يكذِبْ بعضُكم بعضاً بل اخلَعوا الإنسانَ العتيقَ مع أعماله» (كو ٣:٩).

طالما أنكم أنتم المسيحيين قد لبستم المسيح الذي هو الحق (يو ١٤:٦)، كيف تلبسون الآن لباسَ الكذب؟ إنّ هذا اللباس هو طابع الشيطان أبي الكذب كما هو مكتوب: «ذاك أي الشيطان... لم يثبت في الحق... لأنه كذّاب وأبو الكذب» (يو ٨:٤٤).

«الإنسان القديم» هو من نيّة الإنسان السيّئة لا من طبيعته الجسدية. ويُسمّى الإنسان ويوصف حسب نيّته واستعداد قلبه لا حسب طبيعة جسده.

لذلك لا يُسمّي الكتاب المقدّس الناس بحسب الطبيعة الجسدية بل بحسب نيّتهم الحسنة أو السيّئة التي كوّنت طبيعتهم. مثلاً يسمّيهم أحصنة «صاروا أحصنةً معلوفة سائبة صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه» (إر٥:٨). ويسمّيهم كلاباً «كلهم كلابٌ بُكْمٌ... والكلاب شرهة لا تعرف الشبع» (إش ٥٦: ١٠-١١). ويسمّيهم ذئاباً «رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطفة خطفاً لسفك الدم، لإهلاك النفوس، لاكتساب كسبٍ» (حز ٢٢: ٢٧). ويسمّيهم ثعالب «أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب في الخرَب» (حز ٤:١٣).

شرحنا لكتابات الآباء لا يقتصر فقط على التعرّف إليهم وإنما هي دعوة لنا لقراءة هذه الكتابات لأهميَّتها في حياتنا في المسيح. فإذا كانت قراءتنا للكتاب المقدَّس بمثابة الغذاء الذي يحيينا فإن كتابات الآباء تشهد على ان هناك مَن سبقنا في السلوك في الوصايا الإلهية المحفوظة في الكتاب المقدس ونقل لنا خبرته مكتوبة لتكون لنا معيناً على التمثُّل بهم في حياتنا في المسيح.

الإحتفال بالميلاد

«لقد حبلتِ بمسرة الآب من الروح القدس بغير زرع بإبن الله المولود من الآب قبل الدهور بغير أم. الصائر منكِ بغير أب من أجلنا. وولدته بالجسد وأرضعته طفلاً. فلذلك لا تزالي متشفعة إليه أن ينقذ من الشدائد نفوسنا» (من صلاة غروب أحد الأجداد).

فيما تمطرنا الشاشات الأرضية والفضائية والمحطات الإذاعية، منذ الأول من كانون الأول، بمختلف الإعلانات عن الأفلام «الميلادية» – بحسب قولهم – وأماكن السهر ومتاجر الهدايا والألعاب التي لن يكتمل عيد الكبار والصغار – أيضاً بحسب قولهم – إذا لم ننتقِ منها ما يبهج مَن نحب، من المهم أن نحاول إخراج ذواتنا من هذا الضجيج والصخب التجاري ونحاول سماع، أيضاً وأيضاً، ما تعلّمنا إياه الكنيسة عن معنى عيد الميلاد من خلال التسابيح التي استوحاها الآباء بعد قراءتهم روايات الميلاد في الأناجيل. هذه التسابيح التي تحتفل بنور الألوهة الظاهر بميلاد يسوع، وتندهش من العجب لأن الإله المتعالي يصير إنساناً كخليقته.

تحمل هذه النصوص الكتابية والتسابيح تعابير قد تبدو متناقضة في المظهر، إلاّ ان هذا التناقض الظاهر هو الذي يعبِّر بوضوح عن سر التجسد الذي لا يُدرك بالعقل البشري. أوضح هذه النصوص نجدها في بداية الإنجيل بحسب الرسول يوحنا: «والكلمةُ صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده...» (١٤:١). واضح هنا ان «الكلمة» هو شخص ابن الله الأبدي الذي تعبده الكنيسة كأحد الثالوث القدوس، والذي دخل إلى عالم الزمان والمكان، عالم الحياة البشرية الساقط، ليصير إنساناً، بشراً مثلنا. يقوم بهذا «دون تغيّر»، أي دون أن يتوقف عن أن يكون إلهاً. بكلام لاهوتي: شخص الرب المتجسد يبقى الكلمة الأبدي. «الكلمة يتجسّد ومن الآب لم ينفصل». فبالرغم من انه يأخذ كامل الطبيعة البشرية، يأخذ جسداً وعقلاً بشريين، يأخذ نفساً بشريّة، إلا انه يبقى الإبن الأبدي ال«مساوي في الجوهر» للآب والروح القدس. هذه أولى التناقضات المذهلة: في تجسّد الإله، يسوع الناصري يصير «الإله – الإنسان». ليس هو مجرد إنسان صودف انه يجترح العجائب، ولا هو إله «يبدو» انه إنسان. انه «الله في الجسد»، «الإله المتجسد»، هو إله تام وإنسان تام. إن الكنيسة ترنّم «إن يسوع لما شاهد مَن هو على صورته ومثاله متهوّراً بسبب المعصية، طأطأ السموات وانحدر وحلَّ في مستودع بتوليّ بغير استحالة، ليُعيد به جبلة آدم الذي استولى عليه الفساد...». شخص يسوع هو شخص ابن الله، الذي صار إنساناً في أحشاء مريم دون أن يتوقف أن يكون إلهاً. المهم في كل هذا ان الإله صار إنساناً لكي يخلّص الإنسان الساقط منذ القديم.

التسابيح والتراتيل التي ننشدها ي

الكتاب يسمّي الناس بأسماء الحيوانات لأنهم تشبّهوا بهم بحسب نيّتهم السيئة، بينما على العكس يُسمّي الناس أبناءَ الله من أجل نيّتهم الحسنة. «أنا قلتُ إنكم آلهة وأبناء العليّ تُدعَون» (مز ٨٢:٦).

لكن الطبيعة الجسدية لا تُدخل الإنسان إلى الجحيم أو إلى ملكوت السموات بل نيّته الحسنة أو السيّئة.

إذاً بعبارته «الإنسان القديم» يقصد الرسول النيّة الفاسدة الرديئة، لذلك يضيف بعدها «مع أعماله».

يقول إذاً: أيها المسيحيون إخلعوا النيّة الفاسدة مع الأعمال الشريرة. بكلمة «عتيق» يشير الرسول إلى عداوة هذه النيّة وبشاعتها ومرضها. وانظر كيف عدّد أعضاء هذا الإنسان العتيق: عن طريق الكذب بُني ذهنه المنحرف، عن طريق الغضب كشف عن قلبه الشرير، عن طريق التجديف أظهر فمه الكريه، عن طريق الزنى أظهر عينيه الزانيتين، عن طريق الطمع يديه الظالمتين، عن طريق الشهوة الرديئة أظهر الأعضاء الخفيّة، الكبد والكليتين (راجع رو ٦:٦).

«عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليُبطل جسدُ الخطيئة كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطيئة».

القديس نيقوديموس الآثوسي

فترة الميلاد تعبِّر بدقة وجمال بديع عن هذا اللاهوت. لعل أوضحها ما نرتله عشية عيد الميلاد، في الليتين حيث تنشأ موازاة بين العظيم والصغير، بين السماء والأرض، بين الجلال والتواضع: «لتفرح اليوم السماء والأرض فرحاً نبوياً، ولنعيِّد أيها الملائكة والبشر تعييداً روحياً، لأن الإله قد ظهر بالجسد للجالسين في الظلمة والظلال، مولوداً من امرأة، فتقبّلته مغارة ومذود، رعاة بالعجب يذيعون، ومجوس من المشارق في بيت لحم للهدايا يقرّبون. وأما نحن فإننا بشفاهٍ غير مستحقة نقدِّم له التسبيح الملائكي هاتفين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، **لأن رجاء الأمم قد جاء، فخلّصنا من عبودية العدو**». و«اليوم السماء والأرض اتّحدتا بولادة المسيح، اليوم الإله على الأرض ظهر، والإنسان إلى السموات صعد، اليوم غير المنظور بحسب طبيعته يشاهد بالجسد **لأجل الإنسان**، لذلك فلنهتف نحوه بالتماجيد صارخين: المجد لله...». كما ان التسابيح لا تنسى ان تمدح والدة الإله التي صار حشاها «أرحب من السموات»، لأنها حملت وولدت من هو خالق كل الأشياء وفاديها ومع ذلك بقيت بتولاً: «لقد تم اليوم عجب عظيم ومستغرب، ذلك ان بتولاً تلد، والمستودع لم يدخل عليه فساد. الكلمة يتجسَّد ومن الآب لم ينفصل، الملائكة مع الرعاة يمجدون ونحن معهم نهتف صارخين: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام».

المعنى الحقيقي لعيد الميلاد والهدف من تجسُّد ابن الله نجدهما في قنداق العيد: «اليوم البتول تلد الفائق الجوهر... **لأنه قد وُلد من أجلنا صبيٌ جديد**. الإله الذي قبل الدهور». الله المتعالي، غير المنظور، غير الموسوع في مكان، غير المدرَك في جوهره، يرتضي أن يدخل عالم حياتنا وأن يحمل أتعاب طبيعتنا وأوجاعنا مثلنا، وذلك لسبب واحد: لكي يخلّصنا من نتائج ثورتنا الخاطئة ضد صانع الحياة، وليرفعنا من عمق جب الموت والفساد.

ما حدث منذ أكثر من ألفي عام في تلك القرية الصغيرة، بيت لحم، نحياه كل عام من خلال صلواتنا الليتورجية في موسم الميلاد المبارك. مَنْ يبقى قابعاً في منزله ولا يشترك في الصلوات لن يعرف معنى العيد وسوف تبقى هموم هذا المجتمع الإستهلاكي التجاري تحاصره وتستنزف قواه، فيما المطلوب واحد وهو أن يسعى الإنسان وراء خلاصه.

المهم أن لا نضيِّع سهم بوصلة حياتنا ولا نتلهى بما يُبعدنا عن خلاصنا. الذي وُلد في مغارة بيت لحم هو الذي سوف يُعلّق على خشبة ويفدي الإنسان. فلنهيِّء له مكاناً دافئاً في مغارة قلوبنا ليستقر فينا.

أمسية ميلادية

بمناسبة عيد تجسّد ربنا ومخلّصنا يسوع المسيح تُقيم جوقة القديس رومانوس المرنم بالإشتراك مع جوقة أبرشية طرابلس أمسية تراتيل ميلادية يوم السبت ٢٩ كانون الأول ٢٠٠٧ عند السادسة مساءً في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرفية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb